إعلام التنوير وإعلام التعتيم

حين يرن جرس التلفون في المنزل، في ساعة متأخرة من الليل، فان المرء المستيقظ لتوه، يشعر بانقباض شديد ومفاجىء، لأن مثل هذه التلفونات الليلية المتأخرة في اغلب الاحيان نذير شر، لا بشير خير.

ويكون المرء أكثر عرضة للانقباض حين يكون في اقربائه او اصدقائه شخص مريض او غائب. فكيف اذا كان المريض وطنا والغائب شعبا؟!

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية بعد منتصف الليل، حين رنّ التلفون في بيتي، وفي الاقارب والاصدقاء أكثر من مريض وأكثر من غائب، واعترف بأنني فكرت فيهم وأنا ارفع سمّاعة التلفون، ولم افكر أنذاك بالوطن ولا بالشعب:

- مالو
- مالو
- مين
- هذا انا وليد. لقد بدأت الحرب في الخليج.
- شكرا على الاتصال. تصبح على خير.

أي خير؟ لقد أصبحنا على حرب. ولا بدّ من استيضاح الامور

وتعقّب الاحداث.

وهرعت الى جهاز الراديو .. ثم الى جهاز التلفزيون. ثم الى الترانزستور. كالملدوغ الباحث عن قطعة ثلج في البرية..

اذاعة عربية تبث تلاوات من آي الذكر الحكيم .. نقلة أخرى .. إذاعة عربية تتابع بث اغنية لام كلثوم .. نقلة أخرى. اذاعة عربية تبث حواراً عن الفن كما اعتقد .. ونقلة اخرى .. اذاعة عربية اخرى تبث صمتا عربيا أخر..

ولم يكن هناك سوى اذاعة اسرائيل العبرية.. في بث نشط عن الحرب، احداثها، امكانياتها، افاقها وهلمجرا..

بعد قليل بدأ التلفزيون الاسرائيلي البث، ولم يكن هناك من المحيط الى الخليج سوى .. التلفزيون الاسرائيلي..

وتظلم العينان ويغيم القلب: ولو! النار تشتعل واهل البيت نيام، والجار (لو جار!) هو وحده الساهر؟

اما من امة بين المحيط والخليج سوى امة اسرائيل؟

أما من اعلام بين الماء والماء سوى الاعلام الاسرائيلي؟

ولو! الا نستطيع تتبع هذا الحدث العربي إلا باللغة العبرية؟

وأقسم لكم قسما عظما انني في هاتيك اللحظات لم يحضرني سوى المطلع من قصيدة شاعرنا يوسف الخطيب:

أكاد أومن، من شك ومن ريب
هذي الملايين ليست امة العرب !

إحك، واذا كانت اذاعات الملوك والامراء والشيوخ والرؤساء كلها ساهرة، وقائمة قاعدة، فماذا تتوقع ان تسمع منها عن الحرب؟ وهل يخطرْ ببالك أن تعترف أجهزة اعلام (تعتيم) السلطة بانه منذ الفتوحات العربية الاسلامية لم تشارك الشعوب العربية مشاركة

فعلية في اية حرب وفي اي سلام، وفي أية هدنة او وقف اطلاق نار؟
ثمّة إعلام للتنوير وآخر للتعتيم.

ويحز في نفوس الاحرار ان الاعلام السائد في الوطن العربي هو إعلام التغييب التام للحقيقة التي تعني الامة وتطال مقدّراتها ومصيرها.

وهذا الاعلام التعتيمي قائم في صميمه على قلب الحقائق وتزوير الوقائع فالهزيمة تصبح "صمودا" والكارثة العسكرية تصير "نكسة" وقاهر الشعب هو "حبيب" الشعب والعاجز عن تحرير أرضه المحتلة هو "بطل التحرير"، والمدحور هو المنتصر والدكتاتور هو "رمز" الامة، والحاكم المطلق الصلاحيات هو الحامي والمنقذ والمخلص والحلم والأمل، وهكذا، مما يتنافى مع الحق والحقيقة والمنطق والتاريخ والاخلاق والضمير والمصلحة والواجب.

لسنا من السذاجة بحيث نعتقد بوجود إعلام ما في العالم كله يتمتع بالحرية المطلقة. بيد أن الحرية النسبية هى أمر ضروري للاعلام وللقضاء في أي مجتمع حرّ (نسبيا!).

وبغياب هذه الحرية النسبية، فستضيع الحقيقة وسيضيع العدل وسيغيب المنطق وتعم الجهالة ويسود القمع وتتبلبل الخطا وتغيم الرؤية وتنعدم الرؤيا وتنهدم المقاييس ويتصدع البنيان الاجتماعي ويتضعضع الكيان السياسي ويتزعزع الحلم وتمحى الافاق ويطم اليأس ويعم الهلاك والدمار والتخلف والفوضى.

هنا يأتي دور الاعلاميين الطلائعيين الاحرار، هنا يأتي المعنى الحقيقي للقلم الجريء. وفي هذا الامتحان يكرم الكاتب أو يهان. هنا تتجلى المواقف وينجلي الجوهر ويبرز التفاوت بين قلم سيّده الضمير وآخر سيّده الارتزاق والتسلق.

وفي غمرة الحرب الاخيرة اظهرت بعض الاقلام قدرتها النبيلة على التوفيق بين العقل والقلب، ولم تتخلّ عن واجبها التاريخي في التمييز بين الحق والباطل والصحّ والغلط والصواب والضلال، بينما أظهرت اقلام اخرى قدرتها الخارقة على ممارسة الانتهازية المنحطة بصفاقة ونذالة تامتين. ومن هذا البعض الساقط من حاول ويحاول مهاجمة امريكا بما لا يغضبها إنما يرضي القراء، ومهاجمة القراء بما يغضب حكام اسرائيل، ومهاجمة حكام اسرائيل واسترضاء امريكا بما لا يغضب الاتحاد السوفييتي ولا يغضبه، وهكذا، حبرا على ورق وزيفا على زور وخطلا على خطأ، ما دام الأجر مدفوعا من أكثر من جهة وما دام الرضا دائما والنعمة موفورة.

وهنا، مرة أخرى، يأتي دور الاعلاميين الطلائعيين الاحرار والمسؤولين إزاء الكلمة، ازاء الشعب والوطن، ازاء التاريخ والضمير. اللهم إني بلغت!

«الاتحاد» ١٩ نيسان ١٩٩١